لحظات مسروقة

جلستُ إلى الطاولة الأنيقة في أحد المطاعم الهادئة أنتظرها، لابد أن الزحام قاتل في الخارج، ولهذا تأخرتْ، التقيت بها كثيراً في ظروف مختلفة، لكنها طلبت لقائي بشكل شخصي، لتناقش معي أمراً ما، ما زلت أجهل هذا الأمر ؟ ولكن ما أعرفه أنني سعيت إلى هذا اللقاء، وأنني أنتظرها، هناك ما يدفعني للبقاء، بدأت أتأمل الناس من حولي لقتل الوقت، رأيت وجهاً بدا لي مألوفاً ـ أو ربما تخيلت هذا ـ ثم أدركت أنه يذكِّرني بصديق عزيز لم التق به منذ زمن.

ابتسمت.. تذكرت صديقي هذا جيداً، تذكرت لقائي الأخير به، تذكرت زوجته، تذكرت دموعها الحارة وهي تحكى لي عن الأخرى، التي تظن إنها موجودة في حياة زوجها، كنت وزوجتي نحاول أن نجلب لقلبها المنزعج بعض الهدوء، كانت تحكي والدموع تنساب من عينيها الجميلتين كيف جمع الحب بين قلبها وقلب صديقي من النظرة الأولى، كيف كان كل شيء بينهما يولد طفلاً رائعاً في المهد، الحب، الزواج، الأمومة.

تســاءلت زوجـة صديقي : لماذا انتهيت في عينيه وقد كنت حباً لا ينتهي . . أين ذهب كل هذا . . لماذا رحل الحب ؟ أصبح زوجي صامتاً شـارداً . . لا يـتحدث في البـيت مطلقـاً . . لا يشاركنا أنا والأبناء أي متعة . . زادت مساحة الصمت والوحدة في حياته كثيراً . . معنا ولكنه في مكـان آخـر . . يسـتمتع بوحدته . . ينام في حجرة منفصلة . . كان يقـول الكـثير وهـو صـامت شـارد . . ابتعد بجسده عني . . ثم بدأت روحـه تغـادر شيئاً فشيئاً . . رغم ذلك ما زلت أحبه . . وأحياناً كثيرة ألوم نفسي على أنني ما زلت أحبه .

قـررتُ أن أذهـب وحـدي إلـيه ، فهـو صـديق عمري ، أريد أن أعـرف أسـباب صـمته ، أن أعـرف مبررات الرحيل ، فلقد ترك شقته وذهب للإقامة في شقة أمه الراحلة ، كان قليل الكلام ، بعد مقدمات لا معنـى لهـا . . تساءل : هل أرسلتك ؟ هل سمعت شكوكها وظنونها التي لا تنتهي ؟ هل رأيت دموعها التي لا تتوقف .

ضم رأسه إلى يديه وكأنه يحاول أن يعتصره ، شعرت بقسوته على نفسـه ، نظـر نحـوي طـويلاً نظـرة لا أنساها ، كنت أرى فيها نوعاً من الانكسار ورغبة في الهروب ، بادرته :

لماذا ؟ لماذا تركت بيتك ؟ لماذا غادرت حياتك كلها ؟

ظل يفكر وكأنه يتمنى أن لا يتكلم: إنه إحساس لا أستطيع أن أصفه.. ونقطة لا أعرف لماذا وصلت إليها.. وأسئلة بلا إجابات.. سأتحدث معك كأنني أتحدث إلى نفسي.. سأقول لك ما أخفيه.. نعم هناك امرأة أخرى غير زوجتي.. هذه المرأة أخرجتني من القالب الجامد الذي أحياه.. فتحت أبوابي فدخلت.. كانت شيئاً مختلفاً.. أضافت لحياتي مساحات جديدة كنت أحتاجها.. منحتني قدراً أكبر من حرية الحركة.. تملكتني دون أن أشعر.. أصبحت أحب أن تشاركني أفكاري، أن تشاركني أحاسيسي وخواطري.. إنها تشعر بي جيداً.. تتكلم عندما أحب أن أسمع صوتها.. وتصمت في لحظات صمتي.. أعادت اكتشافي.

كنت قد بدأت أشعر بأنني أفعل الشيء نفسه كل يوم.. أسير في طريق واحد.. في اتجاه واحد لا يحتمل العودة.. جاءت هي.. اقتحمت منفاي الذي اخترته بإرادتي.. جعلتني أشعر بأن هناك شيئاً ما جديداً.. حطمت ما كان يحجب عني الرؤية.. أبصرت الدنيا بعيون جديدة.. عيون لم يعد بريق الماضي يأسرها.. أدركت أنني تحررت من أشياء لا أريدها.. أحب زوجتي.. نعم أحبها ولكنه ليس الحب نفسه الذي بدأنا به.. إنه الواجب وليس الحب.. أدرك أن الواجب قد يحكمنا بدرجة أكبر من الحب.. ولكن زوجتي رفضت

هـذا . . رفضـت أن يحكم الواجب علاقتي بها . . وعندما شعرت بأن هـناك أخـرى . . هاجمـتني . . سـعت خلفـي . . لم تكـن بجانبي مثل الأخرى .

تمسـكت زوجـتي بالماضـي . . حاولـت أن تعيد إليه الحياة . . أن توقـف الـزمن . . تناسـت أن كـل يـوم يحمـل شـيئاً مختلفاً . . فكـراً جديـداً . . أصـرت على ما كان . . أخبرتها أن الأخرى التي تشك في وجـودها إحسـاس وهمـي . . وأن عـزلتي مجرد مسألة وقت . . كنت أتمنى أن تتركني للوقت . . فربما تتغير أشياء كثيرة كما تغيرت أنا ، ربما يرحل هذا الحب الجديد في وقت ما وأعود كما بدأت ، ربما أستطيع أن أغلـق أبوابـي مـرة أخـرى . . نظرتنا للأشياء ليست ثابتة . . أحكامنا تتـبدل علـى الـدوام . . أنا لم أطلب أكثر من فرصة . . أكثر من مجرد وقـت . . للأسـف لم تمـنحني زوجـتي هـذه الفرصـة ، منحـتها لي ـ الأخرى ـ .

عندما شعرت بأن حياتي مع أسرتي تترنح . . اختفتْ . . شعرت بفراغ قاتل عندما اختفت . . استعدتها من جديد . . رفضت ـ هي ـ أن أعانـي ، أمـا زوجـتي فجلـبت لي المعاناة بدموعها وآلامها ومطاردتها لـي . . كـنت أتمنى أن أختلي بنفسي . . أن أعيد حساباتي . . أن أقدر

حجم خسائري . . لكن للأسف دموع زوجتي أجبرتني على الرحيل . . لم أعد أرغب في البقاء خلف أسوارها ، فهي لم تحترم وحدتي . . قاتلت زوجتي من أجلي . . وانسحبت الأخرى بهدوء . . وأنا أكره المعارك . . انسحبت . . وعندما انسحبت التقيت بالأخرى مرة أخرى .

هل ستصدقني لو قلت لك إنني لن أتزوجها ؟ . . أعرف أن زواجي منها حلال لي . . ولكنني سأظلم أسرتي بهذا الحلال . . سأخسر الكثير من المشاعر . . سأبدل الثقة النادرة بيقين لا يقبل الشك . . سيجلب الحلال صراعاً نفسياً لي ولزوجتي ولأولادي . . لن أهدم بناء استغرقت فيه أعواماً طويلة . . من أجل حديقة صغيرة . . مهما تكن جودة العطر الذي ستمنحه لي . . كنت أتمنى أن تمنحني زوجتي لحظات . . مجرد لحظات أستعيد بها نفسي . . لكنها لم تفعل . . حاصرتني . . كان عليّ إما أن أعلن العصيان . . وإما أن أستمع لصوت الواجب .

سألته على الفور : ماذا ستفعل ؟ كان عليك أن تتقبل حياتك كما هي . . أن لا تحاول إعادة اكتشاف ذاتك مع أخرى . . أن لا تبيع أيام عمرك الطويلة لكي تمنح نفسك لحظات مسروقة . . . . . .

أغمضت عيني، عدت إلى طاولتي في المطعم الهادئ من جديد، تذكرت أنني لم أتلق من صديقي أية إجابة، كانت إجابته النظرة نفسها التي استقبلني بها، وقتها كنت ثائراً عليه، رأيت أنه يهدم حياته بلا داع، وأنه يحطم النادر فيها، وأنه يرحل مهزوماً، مكسوراً، خاسراً. أفكر الآن في كلام صديقي، أشعر ببعض الندم لأنني لم أقف إلى جواره، تركته وحيداً، لمته كثيراً، كان مخطئاً ولكن ليس إلى الحد الذي كنت أظنه.

نظرتُ إلى ساعتي، غادرتُ المكان، لمحتها من بعيد تدخل المطعم مسرعة، في كامل أناقتها، شعرت بعطرها يملؤني، لا أعرف لماذا أسرعت بركوب سيارتي ؟ لماذا أسرعت بالابتعاد، كل ما أعرفه أنني قررت أن لا أفتح أبوابي لأخرى، أن لا أعيش تجربة صعبة ـ رفضتها ـ لصديق عزيز يوماً ما.